الفصل السادس

قلعة شلسلبرج

في احدى الجزر المتجمعة على مصب نهر نيفا ابنية عديدة محشودة لا يؤذن لسوى زورق واحد في الدنو منها . واحد هذه الابنية العظيمة قلعة شلسلبرج الهائلة او احد السجون الذي يلقى فيهِ المأخوذون بالتهم السياسية . ومنها بناء آخر يدعى قلعة القديسين بطرس وبولس وقد وصف كاتبٌ اميركيٌّ قلعة شلسلبرج بقولهِ : —

"انَّ حراسها منتشرون على شاطىء الجزيرة في نقط متقاربة بحيث يستطيعون أن يكلموا بعضهم بعضاً . وهم مأمورون أن يطلقوا النار على كل من حاول الاقتراب من القلعة دون ان يسبق ذلك انذار او يتقدمهُ سؤال . وعندما تطأ قدم غريب حافة الشاطىء يسددون البنادق صوبهُ ويثبون بالرصاص قلبهُ فتسقط جثتهُ الى النهر وتطفو عائمة على البحر ويذهب دمهُ هدراً . وانما يجوز لزورق واحد ان يأتي الجزيرة وهو مصبوغ اسود وتحت ادارة البوليس خاصة ولم يرجع قطُّ واحدٌ من الذين قضى عليهم سوء الحظ بالسجن في تلك القلعة والشائع عند الاكثرين انَّ كلَّ من يساق اليها لا يعود منها سالماً الاَّ للذهاب الى سيبيريا"

فالى هذه القلعة جيء بالامير لاديسلاز وفي مساء اليوم الذي فيهِ كلامنا جلست الاميرة كاريتا في ذلك الزورق (زورق البوليس) قاصدة القلعة ومعها ضابطان

فلما بلغت مدخلها لقيها قسيس السجن وكان قد جاء الى هذه القلعة من عشرين سنة يصلي للنبيلات المسجونين ويقوم امامهم بفروض الدين . فاستقبل الاميرة منقبضاً وحياها وقال : —

— تشجعي يا ابنتي وتجلدي . ان اخاكِ الامير مريضٌ جداً . فانهُ عند وصولهِ اودعوهُ اوطأ مكان في القلعة حيث ناشتهُ غوائل البرد والرطوبة ونشبت في جسمهِ الغض الناعم اظفار العفونة والفساد . اذاً استعدي للاقاة تغيُّر عظيم فيهِ

— ويلاهُ ؟ هل مات ؟

— كلا يا ولدي

— اذاً هو في حالة النزع ؟

— نحن في يدي الله ؟

فاخذت بكمهِ وقالت : — قل لي بعيشك قل لي يا أبتِ المحترم اما سقوهُ سمّاً ؟

فرسم الكاهن علامة الصليب على وجههِ وقال : نحن يا ابنتي في يدي الله . تعالي معي

وانظريه . فقد نقلوهُ الى الطبقة العليا

وكان الامير لاديسلاز قد نُقل الى غرفة عالية تشرف على المدينة وانوارها تتألق على وجهِ الماء تألق الكواكب في السماء . فبرح الخفاء لدى الاميرة حينما رمقت جسمهُ الشاحل المتحل وابصرت ظلّ الموت مخيماً على عينيهِ حتى انهُ بالجهد استطاع ان يعرفها . ثم تكلف الجلوس بمشقة شديدة وقال لها بصوتٍ خافتٍ : —

— كاريتا اين نادين ؟

— لاديسلاز — اخي — واحرقة كبداه ؟ ماذا أُخبرك بل بمَ أُجيبك على هذا السؤال ؟ ثم جثت على ركبتيها بجانب اخيها . اما هو فرفع نفسهُ بجهد عنيف مرّة ثانية واتكأ على جنبهِ وقال : —

— اين هي ؟ لماذا لا تجيبيني ؟ أجيبي يا اختاهُ . هل قتلها ايضاً ؟ نعم ! نعم ! ماتت نادين ! أليس الامر كذلك ؟ فلم يجاوب بسوى تنهدات تلك المسكينة المنكسرة القلب المضغوطة باثقال الحزن والكرب . ثم أسرّ اليها بنفسٍ متقطع وفكرٍ متضعضع : —

— كاريتا . تنتقمين لنا انتِ والكسس ؟ اصغي اليّ . اني أُخذتُ بمكيدة جون فاين لانهُ سرق الكتاب من عندك ولا اعلم — او لا يهمني ان اعلم — كيف تمكّن من ذلك . والكتاب الآن عند كيراتيف . فاحلفي لي انك تنتقمين من ذلك الغدّار وتأخذين بثاري وثأر نادين :

— احلف لك يا شقيق الحياة اني سانقطع للأخذ بثأركما حتى تدركني الوفاة

— شكراً لله ! اقتربي اليّ اكثر . لا أقدر أن اراكِ . لكنك انت هنا ايها الاب المحترم . اليس —

ثم انتهت عبارتهُ بتنهدٍ عميقٍ اختطفتهُ اختهُ من فيهِ بقبلةٍ يكفي لوصفها قولنا انها قبلة شقيقة لشقيق . وعندها قضي الامر وتوفي الامير لاديسلاز

وفي الساعة الثانية عشرة (نصف الليل) بلغت أُختهُ الشاطئ راجعة من القلعة

الفصل السابع

انتقام امرأة

وفي اليوم التالي جلس رئيس البوليس ديمتري كيراتيف في ديوانهِ يراجع الوقائع الحادثة منذ ايام . ولم يسرّهُ سير تلك الحوادث لان قيامهُ بوظيفتهِ كرئيس الفرقة الثالثة المخيفة كان

يفرض عليهِ اقتحام الاخطار وركوب الاهوال ولم يخفَ عليهِ انهُ هو نفسهُ كان آلةً للانتقام السري الذي تحتمَّ عليهِ اجراؤهُ والاَّ أتهم بمشايعة زعماء النيهيلست الحاضرين في كل مكان (في روسيا). وفيما هو جالسٌ متكرهًا مشمئزًّا ولاسيما من هول حادثة الامير لاديسلاز التي جرت على طريقةٍ وحشية لم يسبق لها نظير اذا باحد القائمين بين يديهِ قد عرض عليهِ اسم الاميرة كاريتا طالبة الاجتماع بهِ

واذ لم يجد مبباً يبعثهُ على رفض طلبها بل رأى بواعث كثيرة تدعوهُ الى اجابة ملتمسها أمر بادخالها. ولم تلبث ان دخلت وجلست على كرسيٍّ مقابلهُ واخذا ينظران احدهما الى الآخر ساكتين فافتتح الكلام بقولهِ: —

— ماذا عسى ان استطيع فعلهُ لسموّ الاميرة ؟

— انك قادرٌ على فعل اول وآخر معروفٍ يتوقعهُ منك كل عضوٍ من اعضاء عائلتنا جزاء لكلٍّ او لواحدةٍ من الايادي التي لنا عليك

كل ما اقدر عليهِ افعلهُ للاميرة غالتزن بمزيد الرضى والسرور

— حسنٌ وهاك ما اريد. فليس يخافُ عليك ان اخي مات الآن وقد قُبض عليهِ بسبب امراتهِ التي انحصر العلم بوجودها فيما بيني وبينك. وقد ماتت هي وطفلها ايضًا على ذراعيَّ بعد ما أُخذ عنها لاديسلاز باربع وعشرين ساعة فما اطلبهُ منك هو الرقيم الذي قُبض عليهِ بسببهِ

— ايتها الاميرة. اني انكر وجود رقيمٍ سبَّب القبض على الامير لاديسلاز ولكن حب انهُ موجود فلا يعني ان اجيب طلبكِ لان اوراقًا كهذه — اذا وجدت — يترتب عليَّ حفظها بضبط لاني مسؤولٌ عنها واذا فقدت مني جوزيتُ عنها بجواز ذئب[1] ومعلوم عندك ان الشغل الشاق في معادن سيبيريا مدة حياتي ليس بالامر السهل عليَّ

تمهَّل عليَّ دقيقة فابرهن صحة كلامي. ان الامير لاديسلاز قُبض عليهِ بسبب رقيمٍ جاءهُ من دورسكي زعيم النيهيلست وهذا الرقيم سُرق مني وأُعطي لك من احد وكلائك الغرباء جون فاين. فبكل حقوق المعروف اطلب منك هذا الرقيم الآن.

— ايتها الاميرة. لستُ في مقام يدعوني الى الحكم في صحة كلامكِ ولست أرى قوةً تخوّلك حق طلب هذا الرقيم مني او الاطلاع على علاقة جون فاين بهذه الادارة. فاذا لم يكن عندكِ شيءٌ آخر وجدتُ نفسي مضطرًّا ان استأذنك في الانصراف من هذا الاجتماع الذي يؤلمني — صدقيني — قدر ما يؤلمك

(١) هذا الجواز يعطاهُ من يحكم عليهِ بالنفي الى سيبيريا

فظلت الاميرة بضع دقائق ساكتة لا تفوه بكلمة . ثم فتح عليها بما رأته اقوى وسيلة تمكنها من نيل مأربها فالتفتت الى كيراتيف وكان قد تحفز للوقوف متوقعاً ختام هذه الجلسة وقالت : —

— اي ديمتري كيراتيف . لستُ اقول شيئاً من جهة العلاقة التي بين عائلتينا ولكني ارفع دعواي اليك كرئيس بوليس روسيا الذي اصبح مستودع اسرار عائلات كثيرة وقلما تجري حادثة غريبة خطيرة لا يحيط بها علماً . وسأقصُّ عليك حادثة محزنة لم تسمع قط بمثلها فارعني سمعك : —

وبعد ساعة — عند فراغها من سرد قصتها — نهض رئيس البوليس من مجلسه وذهب الى خزانة من حديد وفتحها واخرج منها الرقيم واعطاهُ للاميرة وقال : —

— انَّ ما قصصتهِ عليَّ الآن اقنعني كل الاقناع بأن لكِ حقًّا صريحاً في طلب هذا الرقيم فانهُ كتابٌ اختلسهُ منك جون فاين الانكليزي . ولتطب نفس الاميرة لان هذا الرجل سيبرح هذه البلاد في الحال ولن يعود اليها الى الابد . وبعد ثلثة ايام يجتاز تخوم روسيا

فودعتهُ وخرجت تقول : — اخيرًا ! اخيرًا ! حصلت على المراد . فالثارات لاديسلاز ونادين ! شكرًا لك يا الهي شكرًا لك

وبعد خمسة ايام شاع في بطرسبرج ان جون فاين الذي كان فريدة عقد السراة الاماثل وزينة الاعياد وبهجة المحافل طلع عليهِ اللصوص عند تخم بولونيا فكسروا مركبتهُ وقتلوهُ . ولما بلغ هذا الخبر الاميرة كاريتا جثت على ركبتيها وصرخت الى الله مرددة قولهُ : — لي النقمة ! لي النقمة ! انا أُجازي يقول الرب !

الفصل الثامن

حفلة تنكر

كانت حفلة التنكر العظيمة في مرسح فينا ليلة ١٥ اغسطس سنة ١٨٧٦ في إبان انعقادها وقد بلغت اعظم ما يُعهد لنظيرها من حشد القوم وازدحام الاقدام حتى كنت ترى ذلك المكان كلهُ داخلاً وخارجاً في اسافلهِ واعاليهِ غاصًّا بالقائمين بملابس التنكر رجالاً ونساء . فهنا في ردهاتهِ وهناك في اروقتهِ وهنالك في شرفاتهِ قومٌ يروحون ويجيئون قائمين قاعدين قامصين راقصين غير تاركين نوعًا من الازياء الغريبة المضحكة في الملابس الاَّ وقد مثلوها على اختلاف في المقاصد وتباين في الخازع فالبعض اتوا ذلك متمتعين بالمسرَّات الناتجة عنهُ والبعض اتخذوهُ وسيلةً للحصول على ما يكسبهم متعة السرور والبعض الآخر تكلفوا التمتع اي تظاهروا بانهم

متمتعون بتلك الالعاب المجونية والتسالي الهزلية

وقد كان ذلك المشهد على قول الرواة بهجاً سارًّا الى الغاية . على انهُ ما لم يكن الانسان محبوبًا فيهِ بعددٍ من اخوانِ انسهِ وهنائهِ واخدانِ سرورهِ وصفائهِ او لهُ على الاقل علاقة خاصة تبعثهُ على الاهتمام بقاسمة ما يعرض فيهِ من صور الالعاب واشكال التمثيل كان يبدو لهُ ذلك المعرض من اكبر الموحشات واعظم بواعث الانزعاج والانقباض ودون كل وسائل اللهو بهجةً ورونقًا

ولم يكن بين جميع الحضور رجلٌ نظر الى ذلك المرسح العظيم بعين المقت والاستكراه نظير او بين غودَارد قائد الفرقة العشرين من الفرسان سابقًا ورسول الملكة حاليًا

وكان هذا القائد ذا هيئةٍ فاتنة ساحرة وملاحة لقلوب ربَّات الجمال آسرة . طويل القامة يقصر لديهِ اطول الرجال وعريض المنكبين كأحد الجبابرة الابطال . يكسو رأسهُ شعرٌ اثيث جميل و ينبثق من محياهُ الباهي نورُ ذكاءٍ لا يدع الى الريب في توقد ذهنهِ من سبيل . ولهذا وجد نعمةً في عيون اكثر المتنكرات واصبح فتنة اللواحظ الساحرات الفاتنات ومبعث سباق القلوب اليهِ ومدعاة تحويم النفوس عليهِ

على انهُ كان خالي الذهن من هذا الاهتمام ذاهلاً عن هذا السباق والزحام مشيحًا بنظرهِ عن هذا الامر الواضح الجلي ولسان حالهِ يقول ابن الشجيُّ من الخلي لاناقتي في هذا ولا جملي . وهو قائم في مجلسهِ منتابًا متمطيًا يراقب حوادث تلك الحفلة العارضة بعين الفتور والتراخي ويعجب كل العجب من الصدفة التي اوجدتهُ هناك في مثل هذا الوقت الذي كان يفضل ان يكون فيهِ مضطجعًا على فراشهِ . لانهُ كان قد قدم فينًا في المساء الماضي رسولاً من قبل ملكة انكلترا وفي الصباح سلَّم الرسائل لنظارة النمسا الخارجية وعزم على السفر بعد ظهر اليوم المقبل

وكان الجوُّ السياسي في مدة الخمس سنين الماضية قاتمًا مكفهرًّا لما تلبَّد فيهِ من سحب المسألة الشرقية المطبقة التي أخذت تتجمع منذ سنة ١٨٧١ في سماء الشرق الادنى حتى تراءى انها موشكة ان تكتنف شبه جزيرة البلقان وتمطرها وابلَ حربٍ عوان تدمرُ مساكنها وتخليها من السكان . وقد افضت الى اصدار "لائحة اندراسي" الشهيرة في شهر دسمبر عام ١٨٧٥ فقلقت لها اوربا باسرها واضطربت نفوس مشاهير ساستها ووجفت قلوب ملوكها وعظمائها وانقضى عام ١٨٧٦ في المفاوضات بين لندن وبرلين وفينا والآستانة وحينئذٍ اصبحت حاجة الدول الى رسل اكفاء وسفراء امناء شديدة جدًّا . واذ كان القائد اوبين غودَارد اهلاً لهذه الخدمة دعي اليها من قبل جلالة ملكة انكلترا وعُيِّن رسولها الخاص الى تلك العواصم

لانهُ كان قد قضى السنين الطوال في التضلع من لغات اوربا والاحاطة بشوارد سياستها . وعلى اثر الحوادث التي جرت في البلغار زاد العالم السياسي اضطراباً واوجس خوف حرب هائلة عامة فاسرعت الدول الى تلافي الخطب بعقد مؤتمر في الاستانة في شهر يناير سنة ١٨٧٧ . وهكذا وجدنا القائد اوبين غودارد في فينا في شهر اغسطس سنة ١٨٧٦ اي قبل عقد المؤتمر بنحو خمسة اشهر

واذ كان رسول الملكة وحامل اوامر مهمة لم يستصوب اظهار نفسهِ لاصحابهِ ومعارفهِ في عاصمة النمسا فلزم جهدهُ جانب العزلة والانفراد وبعد ما سلَّم الرسائل طلب لنفسهِ تنزهاً ممتزلاً في احدى المركبات . ثم رجع متثاقلاً بين يدي السآمة والضجر لا يدري كيف يشغل وقت فراغهِ ويقضي ساعات الليل المقبل والنهار التالي الى الوقت المعين لرجوعهِ الى النظارة الخارجية واخذهِ منها اجوبة رسائلهِ

لكنهُ لم يبلغ الفندق الذي كان نازلاً فيهِ حتى أُجيب سؤلهُ بكتابٍ دفعهُ اليهِ خادمُ عند دخولهِ فتناولهُ وأخذ يقلبهُ متحيرًا ماذا عسى ان يكون وممن اتاهُ لانهُ لم يعلم احدًا بقدومهِ . ولم يستطع ان يتعرّف الكاتب من خط العنوان اذ كان غير مألوفٍ لديهِ ولا معروف عندهُ وهذا نصهُ : — الى الشريف القائد اوبين غودارد

هذا فضلاً عن انهُ لم يكن فيهِ من دلالة تشير الى كتابتهِ يد رجل او امرأة . واخيرًا رأى ان حلَّ هذا اللغز انما يكون داخل الغلاف ففتحهُ واذا داخلهُ خاوٍ خالٍ لا يتضمن شيئًا سوى " ورقة دعوة " الى حفلة " التنكر " المعقودة في مساء ذلك اليوم

فقال في نفسهِ " مهما يكن في الامر فاني ذاهب وليس من محذور في هذا لاني اعرف كيف احفظ نفسي ولا ريب في ان من دعاني او دعتني (؟) الى هذه الحفلة سوف يستعلن او تستعلن لي هناك "

وبناء عليهِ قام بعد العشاء وخرج فاذا بالشوارع مزحومة بالذاهبين الى تلك الحفلة المعقودة والندوة المشهودة والمركبات تخبُّ الى ذلك المرسح مرصوصةً بالركّاب رصًّا وغاصة بها الازقة غمًّا فركب احداها وجاء الى باب " الملعب العظيم " ودخل وجلس الى ان رأيناهُ يثاب متمطيًا كما مر معنا

وكانت الحفلة اذ ذاك في معظم القيام والالعاب على غاية عرضها وقد مالت نحو الختام . واخذ البعض ينصرفون والبعض يستعدون للانصراف ومنهم صاحبنا او بين غودارد وبينما كان يتمطّى مودّعًا الحفلة بالنظرة الاخيرة شأن العازم على الذهاب اذا بامرأة جازت مقابلهُ

فنظر اليها وشاهد منها قدًّا رشيقًا كالغصن يتأوَّد قائمًا في مطرف حريري اسود يوشك ان يسيل رقةً و "يكاد من اللطافة يعقد" وقد أسدلت على نصف محياها قناعًا اشدَّ سوادًا من خافية الغراب ترشق من ورائهِ سهام الحاظٍ تصمي القلوب وسحر اجفانٍ يخلب الالباب

وفيما غودارد يتمتع بمشاهدة هذه الذات المجمَّلة بابدع المحاسن استمال نظرهُ عروض رجلٍ يحجلُ وراءها متأثرًا لها وهو متنكرٌ بزيّ ماجنٍ ولابسٌ "وجهًا لهُ من كل قبيحٍ برقعٌ" وبعدما توارت المرأة بين الجمع أبصر غودارد ذلك الماجن يمازحها وهي تشيح عنهُ بعين السآمة والملل واذ راق لعيني اوبين هذا المنظر وآنس شيئًا من التسلية في هذا المظهر استأنف الجلوس في مكانهِ متوقعًا عود تلك الفتاة المتنكرة وما كاد الجلوس يستقرُّ بهِ حتى ذعرهُ صراخ وراءهُ فالتفت واذا بها مسرعة في الهرب من وجه ذلك الماجن الذي عدا يجري وراءها حتى ادركها حيث كان غودارد جالسًا وفي اجتيازهِ بها القى الى يدها ورقة لم تلبث هي ايضًا ان القتها الى الارض وفي اقل من طرفة عين غابا كلاهما عن الابصار فانحنى غودارد والتقط تلك الورقة وفتحها فوجدها خلوًا من الكتابة فقال في نفسهِ "مهما يكن من هذا فلست بتارك ذاك الماجن الوحشي يمتهن قدر هذه الفادة الحسناء" ثم نهض وسار في جهة مسيرها يخترق الصفوف المزدحمة حتى دنا من المتنكرة فأبصر الماجن واقفًا قدامها يروم محادثتها اما هي فنفرت منهُ ودارت تحاول الفرار واذا بغودارد الذي كان وراءها اصبح قدامها فاقبلت عليهِ وكادت تلقي نفسها بين يديهِ وقد خاطبتهُ بانكليزية صريحة لا يخالطها اقلُّ لهجة غريبة : —

— ارجو عفوك

— بل انا ارجو عفوك . هل من خدمة اتشرَّف بالقيام بها لديكِ؟ اراكِ مضطربة ومنزعجة

— سر بي الى مركبتي واغتم شكري وثنائي

— لبيكِ وسعديكِ

ثم مد اليها ذراعهُ وقد دار بنظرهِ مفتشًا عن ذلك الماجن الذي توارى عن النظر واذ لم يجدهُ سار بها الى الباب الخارجي وهناك خاطبتهُ :

— ارجوك ان لا تؤاخذني ولا تحطئ ادراك ما اردتهُ بالتماس مساعدتك وقد لذتُ بك كانسانٍ انكليزي واثقة بانك لا تنظر اليَّ كواحدة — من — اولئك —

فاعترض تتمة كلامها بقولهِ : —

— بلا ريب

ولما اتيا الى حيث كانت مركبتها تقدَّم غودارد وفتح بابها فوثبت اليها في الحال . اما فهو

فاذ رأى نهاية مسعاه الى هذا الحد من الاختناق قال لها : —

— هل تريدين ان اسير بخابيتك الى حيث تأمنين الخطر ؟

— كلاَّ لاني في امن منذ الآن

— هل ادلُّ السائق ؟

— لا حاجة لهُ الى دليل

افلا تسمحين لي على الاقل ان ازورك غدًا واطمئن عن سلامتك ؟ وبعد ما اطرقت هنيهةً أجابت : —

— هل تعدني انك اذا سمحت لك بهذا لا تسألني شيئًا عن امري وتنسى بعد ذلك اجتماعنا للابد ؟

فقال بملء اليأس

— نعم

— بشرفك ؟

— بشرفي

— حسنٌ

ثم اخرجت رقعة وكتبت عليها بقلم رصاص كلمة او كلمتين ودفعتها اليهِ قائلةً : —

— شرفني بتناول الغداء معي في المكان الذي يدلُّ عليهِ هذا العنوان

— متى ؟

— غدًا بل اليوم لانهُ كاد يطلع النهار

— سأراعي الميعاد بكل ضبط

— حسن . استودعك الله الى الملتقى مع الف شكر وثناء عليك ايها القائد او بين غودارد

فعجب من معرفتها اسمهُ ونكص الى الوراء ليغتنم النظرة الاخيرة من المركبة التي ما ابطأت ان أُديرت وأُعمل السوط في ظهر جوادها فعدا كالبرق الخاطف واوغل في الجري تحت اطباق الظلام . فذهب غودارد بالرقعة الى اقرب مصباح منهُ وعرضها على نورهِ فرأى مكتوبًا عليها باحرف كبيرة " البارونة التدورف "

ويليها عنوان مكتوب بقلم رصاص

فاشعل سيكارهُ ودار نحو مدخل الملعب على طريق الانصراف الى بيتهِ مرددًا في ذهنهِ صور هذه المعارض . وهو بين مصدقٍ لها ومكذب

الفصل التاسع

البارونة التدروف

مهما يكن من امر الساعة الاخيرة التي قضاها القائد اوبين غودارد في الملعب فانهُ قضى بعدها ساعةً أُخرى في مخدعهِ تائه الافكار مشرَّد الحواس يضرب في حوادث ليلتهِ — بل حادثتها — اخماساً لاسداس وخرج قبل ظهر ذلك اليوم بساعتين قاصداً الملتقى في الاجل المضروب

وقد يصعب على الكاتب وصف حالة القائد اوبين في اثناء مسيرهِ . فانهُ اجهد قواهُ عبثاً في الاطلاع على شيء من امر هذه البارونة ليعرف لها اصلاً ونسباً وكاد يخالط في عقلهِ من شدة الحيرة والدهشة اذ لم يجد في صوتها او حركاتها شيئاً باعثاً على الحذر والارتياب . كانت كلها ناطقة بكرامة اصلها وحسن تربيتها ولم يستطع ان يأخذها بكلمة نطقت بها شفتاها الجميلتان جزافاً ولا بنظرةٍ سمحت بها عيناها الساحرتان تهكماً واستخفافاً . ومع ذلك تعرَّفت بهِ على طريقةٍ مبهمة جداً وعينت لهُ مكاناً للاجتماع بها على اسلوبٍ في غاية الابهام . ومعلوم ان ركوب مثل هذه الاخطار كان محظوراً على من جاء رسولاً من قبل ملكة انكلترا ولكن غودارد لم يخطر ببالهِ انهُ سائرٌ في طريق الخطر او مقدم على ما يوجب الخوف والحذر . ومما رابهُ ايضاً انهُ لم يقدر ان يتحقق جنسيتها ولا توصل الى معرفة وطنيتها . نعم انها خاطبتهُ بالانكليزية الفصحى ولكنهُ مع ذلك آنس منها ما الجأهُ الى الحكم بانها ليست مولودة انكلترا او انها برحتها منذ وقت طويل . واذ اعيتهُ الحيل في الوصول الى مبتغاهُ وسدَّت في وجههِ ابواب التبصر والاستطلاع اضرب عن الخوض في لجج هذه الافكار العميقة وعمد الى قطع ما بقي عليهِ من الطريق في تصوُّر استقبال البارونة لهُ . فطفق يمثل امام عينيهِ هيئة المكان الذي تدعوهُ اليهِ وما فيهِ من نفائس الرياش وفاخر المفروشات وانتقل منهُ الى تصوُّر الهيئة التي تقبل عليهِ فيها فشرع يتخيل صورة وجهها الباهي وجمال منظرها ورشاقة قوامها وحسن ملبسها ولذة الطعام الذي يتناولهُ معها ورقة الانغام التي تشنِّف مسمعهُ بها بعد فراغهما من تناول الطعام بالضرب على البيانو او على القيثار الى غير ذلك مما يطول شرحهُ ويتعذَّر استيفاؤهُ

ثم انقطع سلك تصوراتهِ بغتةً بداعي وصولهِ الى "منزل التدورف" الذي كتبت لهُ البارونة اسمهُ على الرقعة التي اعطتهُ اياها في الليلة الماضية

وكان هذا المنزل قائماً في ضاحية المدينة في بقعة عامرة بالمناظر البرية يحيط بهِ سياج يفصلهُ عن الطريق ويخفي اسافلهُ عن عين الناظر اليهِ من الخارج ولهُ بوَّابة موصدة تفتح الى

ممشى متعرّج يقود اليهِ . وعليهِ لم يستطع ان يستفيد شيئًا من مجرد النظر الى هذا القصر لانهُ لاح لعينيهِ مقفرًا يخيم فوقهُ ظلال الوحشة وجميع نوافذهِ وكواهُ مغلقة بمصاريع ثقيلة وليس من دخان يصعد من مداخنهِ ولا شيءٌ من مظاهر الانس يبدو داخل ابوابهِ المحكمة الايصاد والتقفيل

وبالجهد تمكن من ضبط نفسهِ عن اظهار التعجب الشديد وقد انستهُ هذه المظاهر الموحشة وعدهُ للبارونة بعدم ابداء اقلّ سؤال او استعلام فالتفت الى فلاّح قائمٍ في بستان على جانب الطريق وسألهُ : —

— ما هذا المنزل ؟ فاجابهُ بعين الحذر والارتياب : — هذا منزل التدورف

— ومن ينزلهُ ؟ — لا احد — كيف لا احد ؟

— نعم فانهُ لا يزال مقفلاً منذ وفاة البارونة التدورف من ثلث سنين

— لكنهُ لا يرى مهجورًا

— لان الباقي من عائلة صاحبتهِ يقوم الآن بنظارتهِ وتعهُّد بساتينهِ على انهُ لم يسكنهُ احد قط بعد البارونة

— افي يقين انت ممَّا تقول ؟

فلم يجبهُ الرجل بشيء بل اكبَّ على عملهِ محققًا السائل وساخرًا بشدة جهلهِ وغباوتهِ

اما غودارد فلم يكترث عليهِ بمصير اقدامهِ الى هذا الحد لعلمهِ انهُ مضطر ان يكون في النظارة الخارجية الساعة الرابعة بعد الظهر ليأخذ جواب رسائلهِ من الكونت اندرامي

فعزم على مداومة السير حتى اذا حان الاجل المعيَّن ولم يظفر بمبتغاهُ لا يعود للبارونة التدروف — اذا جمعتها بهِ المقادير — من حقٍّ في لومهِ على عدم قيامهِ بشروط دعوتها

فواصل التطواف حتى اجتاز حدود المنزل ثم رجع ادراجهُ يمشي الهوينا وعند الساعة الثانية عشرة (الظهر) رأى نفسهُ مرة ثانية امام بوابة قصر التدورف فاذا بهِ قد أُخذ بعجبٍ جديد واندهال ما عليهِ من مزيد اذ رأى البوابة مفتوحة فدخلها وفيها هو سائر في الممشى المؤدي الى داخل ابصر مصاريع الكوى والشبابيك كلها مفتوحة والدخان يتصاعد من احدى المداخن عمدًا وينتشر في عنان السماء زردًا . وفي مقدمة الدار كرسيَّان وامامهما بعض البسط الشرقية وعلى واحدٍ منها "شال" وكتاب مفتوح دلالة على انهُ مقروءٌ فيهِ منذ وقت قصير جدًّا

ولما بلغ الباب فتحهُ لهُ خادم ادخلهُ الى غرفة جلوس المغشاة بالحصر الهندية والمفروشة على طراز لويس الخامس عشر . وفيها هو مأخوذ ببلاغة الدهشة وقد دنا من شباك يشرف على

حديقة غناء اذا بذلك الصوت الرخيم الذي كان لا يزال يرنُّ في فضاء ذهنهِ مدة العشر ساعات الاخيرة يكلمهُ من ورائهِ قائلاً : — ادلاً بالقائد غودارد

فالتفت واذا بشيفتهِ قادمة تخطر بقوام الين من الخيزران واعدل من غصن البان . تكسوها حلة فاخرة من لدن عنقها حتى الخمص قدميها وشعرها الحالك مضفورٌ الى مقدم رأسها. فوقف غودارد مبهوتاً لا يقوى على التفوُّه بكلمةٍ . اما هي فخاطبتهُ : —

— ها قد جئت في الوقت المعيَّن وحسناً فعلت . فلسوف يكون لنا وقت كافٍ لنعرف كلٌّ منا بالآخر او بالحري لاصلاح هذه المعرفة

— اعذريني اذا رأيتِ في كلامي — في اول الامر — شيئاً من عدم الانتظام بداعي حيرتي وارتباكي . فهل تقولين لي اين اجتمعنا قبل اليوم ؟

— ليس الآن بل قبلما نفترق — نعم . انت مضطرٌّ ان تكون الساعة الرابعة في نظارة الخارجية وفي الساعة الخامسة تبرح فينا اليس كذلك ؟ بلى اذاً الاولى بنا ان نتناول اولاً الطعام ثم نتفرغ بعد ذلك لمجاذبة اطراف الكلام

— اني طوع امركِ

— لا تسرع في مطاوعتي انجاماً او اكراماً بل ترسَّل في مجاريني بحرية وكان يجب عليك ان تسيء ظنك فيَّ . وعلى الاقل سلم انَّ تصرُّفي معك كان نادراً غريباً

— اني — فقاطعتهُ قائلة : اني وددتُ منذ وقت طويل ان اتعرَّف بك وقد سنحت لي فرصة قيامي بخدمتك في ما لا تعلم عنهُ شيئاً . وفي اتمام هذا الامر رميتُ طائرين بحجر واحد . فقد تحزَّبتُ للقائد اوبين في حرب سياسية شرط الانتفاع بمعرفتهِ . وواضح ان هذا في حربٍ

— فقال وفي حبٍّ — فقالت بلا ريبٍ . قالت هذا متوردة ثم استانفت كلامها : —

— على ان الاول يستدعي الآن معظم انتباهنا على الخصوص . ولكن قم بنا فان المائدة معدَّة وانا جائعة جداً

ثم سارت امامهُ الى غرفة الطعام . وبعد ما جلس على المائدة قال لها : —

— افلا تنعمين عليَّ بايضاح هذه المشكلات المبهمات ؟ واول ما اسألهُ كيف عرفتِ اسمي وثانياً اما انتِ التي ارسلت اليَّ ورقة الدعوة الى حفلة التنكر في الليلة الماضية ؟

— كيف عرفتُ اسمك ؟ وهل يجهل احد في فينا اسم القائد اوبين غودارد رسول جلالتها السياسي الأ الخامل العريق في الجهل ؟ وانا التي ارسلت اليك ورقة الدعوة الى الحفلة لاسبابٍ أطلعك عليها الآن . وليس بخافٍ عليك شدة ارتياحي الى المسألة التي لاجلها جئت

الى فينا اربع مرات في مدة اربعة اشهر وقد اتاح لي حسن الحظ اجتماعاً بك طالما حدّثت نفسي به

— مهما يكن من غرضك ايتها البارونة فان لساني الآن في هذا الاجتماع القصير اقصر من ان يعبر عما اغبط به نفسي على هذه الفرصة السعيدة

— ان رسالتك في غاية الاهمية والمؤتمر سوف يعقد في ديسمبر او يناير

فاجابها متحرزاً : — هكذا يظن

— من الغريب ان انكلترا ترشح لاوامر روسيا وتذعن لمقترحاتها وقد كنت اظن ان حكومتك ترسل اسطولها الى الشرق

— انها لا تقدم على هذا الاّ اذا اخفقت مساعي المؤتمر وقصرت مقدماتهُ عن ادراك النتائج المطلوبة

— اذاً في الزوايا خبايا ولم أُخطىء الظن

فاجابها متلجلجاً وقد اوجس خوفاً تضييقها على افكاره واطلاعها على مكنونات اسراره :

— لا اعلم . اراك على جانب عظيم من الاهتمام بالسياسة حالة كون افكار السيدات الطف من ان تحدثها حوادث كهذه

— حقاً اني اعظّم شأن هذه الحوادث وانها يقلقني كثيراً ان أرى مصالحكم الانكليزية مدوسة تحت قدمي غورتشاكوف بواسطة رجلكم غلادستون

فاجابها مقطباً . ليس لرجلنا غلادستون حق المداخلة في هذه الامور ومن العبث تعليل النفس بشيء من مثل حادثة سنة ١٨٧١ وما كان الجوّ ليخلو الآن لروسيا فتمرح وتطفر وتبيض وتصفر

قال هذا لانهُ كان من اكبر انصار حزب المحافظين وقد احفظهُ كلام البارونة الى الغاية فاجابتهُ : — ذلك ما احبُّ سماعهُ من رجل نظيرك وهو خلاصة الرسالة التي بُعثت بها الى هنا . ولا تحاول إخفاء الامر لانهُ لا يسعني ان اتصوّر انك تكذب عليَّ

— لستُ بقادر ان اكذب عليك

فنهضت ودعتهُ الى الانصراف عن المائدة بعد ان اكلا كفافهما ثم خاطبتهُ قائلة وقد لاح على وجهها تغير فجائي : لم يبقَ سوى ساعة لخروجك من فينا ففي الساعة الثالثة ونصف تسير بك مركبتي الى نظارة الخارجية ومن ثم الى المحطة افلا تجيب سؤلي في انك ترسل السائق من نظارة الخارجية ليبتاع لك ورقة سفر ويحضر امتعتك من الفندق ؟ اذ لا اريد ان ترجع انت بنفسك

— يخجلني جداً تطفلي على الانتفاع بهذه العناية الشديدة

— عدني ! عدني !

— اعدكِ . ولكن الا تطلعيني على خفايا هذا السر؟

— لا يخفى عليك ان السياسة الروسية نفّاذة لا يعوقها شيء وقد علمت ان بعض وكلاء روسيا يسعون جهدهم لكي يعوقوك في فينا واجمعوا على طلبك الليلة الماضية من النندق . فبعثت اليك بورقة الدعوة وسببت غيابك عن مبيتك وجئت بنفسي الى الحفلة لاشاهدك واطمئنّ عن نجاتك من اشراك هذه المكيدة . ثم مثّلت امامك ذلك " الدور" وجعلت ذلك الرجل يطاردني و يبالغ في امتهاني على مرأى ومسمع منك لعلمي ان انكليزيًّا نظيرك لا يطيق ان يرى امرأة تهان في حضرته . ولولا هذا لكنت اليوم مسوقًا الى براز او وقوفٍ في دائرة البوليس . ثم مسّت الحاجة ان اواريك هذا النهار عن الانظار وقد خطر على بالي هذا المكان وانت سائر بي الى المركبة لانهم ينتظرونك اليوم في النندق . فلا تنسَ انك وعدتني بعدم الرجوع الى النندق

فاجابها وهو يشتعل غيظًا : — اوتظنين ان مثلي يهرب من وجه انسان

فقالت لهُ برصانة : — من واجباتك صيانة ما أُرسلت اليهِ فقال — الحق معكِ

وظلاّ يتجاذبان اطراف الكلام حتى حان وقت انصرافهِ فقالت لهُ بكل اسف اقول لك اذهب

— اشكر لكِ فضلكِ وعنايتكِ

— اذًا تعفو عن سعيي في اعتراض حريتك ؟

— نعم وذلك في حب وفي حرب — وكلاهما هنا

فتوردّت البارونة وقالت لهُ مادة يدها : — سر بسلام

ولما بلغا باب الدار حاول ان يوضح لها شيئًا من لوائح حبهِ فحال دون ذلك وجود السائق معدًّا المركبة وفاتحًا بابها فاكتفى بقولهِ وهو ضاغط يدها : —

— الى الملتقى — اليس هكذا ؟

— هكذا ارجو

— وعدتني انكِ تخبريني اين اجتمعنا قبل الآن

— امس في الملعب

ثم اغلق السائق باب المركبة وعدا بها حتى بلغ البوابة الخارجية فاطلّ غودارد من كوتها فوجد نوافذ القصر اقفلت كما كانت في الصباح . فقال في نفسهِ : ان هذه المركبة شاهدة على اني في يقظة والاّ فجميع ما حدث لي كان حلمًا

ولما ذهب السائق الى النزل رأى فيهِ رجلين كانا في انتظار غودارد منذ الظهر ولا يزالان ينتظران

الفصل العاشر

القوة وراء العرش

ان نظام البوليس الروسي منقسمٌ الى ثلث فرق الفرقة الاولى من نوع الشرطة المعروف بالجندرمة والثانية البوليس الاداري وهذه رتّبها القيصر نيقولا لاصلاح شؤون الضباط والمأمورين ولكنها قد عمّت الآن اقطار العالم والثالثة — الفرقة الهائلة المخيفة — مؤلفة من البوليس السري ولها رقباء وجواسيس في كل بيتٍ وفندقٍ وحانةٍ . وهذه الفرق الثلاث يرئسها رجل واحدٌ . وهذا الرئيس كان عليهِ في مشاكل سنة ١٨٧٦ الى ١٨٧٧ ان يقوم بما تضعف عندهُ الهمم وتخور لديهِ العزائم

ثم ان دائرة النظارة الخارجية في بطرس برج هي اوسع وأكبر دوائر الحكومة ويليها دائرة النظارة الداخلية وعلى ملاصقة هاتين الدائرتين غرفتان صغيرتان احداهما داخلية تفتح الى رواق والاخرى خارجية تشرف على شارع نيوسكي . وهاتان الغرفتان مترتان لاقامة رئيس البوليس واركانهُ كاتم اسرار ومستشاران او كاتبان

وكان البرنس سكولوف رئيس البوليس يقيم في الغرفة الخارجية . ومقامهُ هذا — بين دائرتي النظارتين — يدلُّ على شدة اهميتهِ في احوال السياسة الاوربية . وكل من شاهدهُ جالساً على كرسيهِ المفشى بالاديم لا يفوتهُ ادراك ما كان عليهِ من ضخامة الجسم وشدة القوى الجسدية . ويكفي للدلالة على ذلك يدهُ الهائلة الملقاة على مائدةٍ امامهُ . وهو غير متجاوز الاربعين سنة . غير ان مجالدات الخطوب ومعاركات الايام كانت راسمة على وجههِ خطوط وقائعها الرائعة التي بيضت مفرقهُ مع ان شعر حاجبيهِ وعارضيهِ كان باقياً في شدة سوادهِ دليلاً على تلك الليالي السود التي مرّت برأسهِ . وكان في هذا الوقت يقذف بشرر عينيهِ الحادتين من تحت حجبةٍ عريضةٍ ووجههُ يسفر عما اعتادهُ في حالة السكون والهدوء . ولعامهُ — اذ الوقت صباح — رسائل متنوعة جاءتهُ منذ نصف ساعة وهو آخذٌ في فضها واحدةً واحدةً وبعد ما يعلمها بقلم رصاص ليسهل توزيعها يضعها في كومتين احداهما ترسل الى مجلس الشورى والاخرى تحفظ لكي تطالع مطالعة سرية فيما بعد . لكنهُ لم يلبث ان توقف عن فضها بداعي رسالة تناولها ولم يطل نظرهُ فيها اذ ليس من فائدة في ذلك لانها لم تكن من الرسائل الاعتيادية بل كانت مكتوبة على قرطاس ازرق رقيق مربع الشكل باحرف يونانية على اصطلاح خاص . وغاية ما استطاع تلاوتهُ منها ما معناهُ "الشيطانة الجميلة" . فلم يعد لهُ مندوحة عن انتظار كاتم اسرارهِ الذي عندهُ مفتاح الرسالة السرية وحلُّ هذه الاحجية . على

انهُ ما ابطأ ان طرق اذنهُ وقع اقدام فالتفت واذا بشابٍ دخل الغرفة وجلس على كرسي امام مكتبهِ يخاطبهُ قائلاً ها قد اتيت يا ديمتري ديمتريفتش فقد كنت في انتظارك

— هل من رسالة من الشيطانة الجميلة ؟

— نعم فاين الآلة التي تحل بها مثل هذه الرسالة ؟

— هنا يا صاحب السمو

— أدرها على ١٠٠ ، ٢٠٠ ر واقرأها بها

قال هذا وسلم الرسالة الى كاتم اسرارهِ وزجع ينفض الرسائل الباقية وعلى مدة نصف ساعة لم يسمع في تلك الغرفة من صوت سوى صرير تلك الآلة المشغول كاتم الاسرار في ادارتها تفسيراً للرسالة السرية حتى اذا فرغ من حلها حرفاً حرفاً نهض ودفعها الى رئيسهِ مكتوبة بالافرنسية وهذا تعريبها : —

" فينا في ٢٤ اغسطس سنة ١٨٧٦

" القائد اوبين غودارد من فرقة العشرين للفرسان مبعوث الملكة الخاص في المسائل الشرقية . عمرهُ نحو ٣٤ سنة وهو انكليزي مهذب من كل وجهٍ و يتعذر استجلاء دخيلتهِ وابتلاء اسرارهِ بالوسائل العادية . قدم فينا في ١٥ اغسطس يحمل رسائل الى نظارة الخارجية

" اذا عُقد المؤتمر لزمت انكلترا جانب الحياد وان شهرت روسيا الحرب اسرعت انكلترا الى احتلال البوسفور . لا بدَّ من المحافظة على عدم تجزئة المملكة العثمانية . عناية خاصة بياطوم وطرابزون . لا تفصيل غير هذا الآن

" في هذا المساء ابرح فينا شاخصة الى بطرس برج الشيطانة الجميلة "

ثم طوى رئيس البوليس الرسالة الاصلية وترجمتها ووضعهما في خزانتهِ وقال متمتماً : —

— ان هذا في غاية الاهمية . " انكليزي مهذب . يتعذر استجلاء دخيلتهِ لا تفصيل غير هذا " . حقاً اني لا احب هذا الاسلوب . لكنها قادمة هذا المساء . فلا باس . سوف اقابل هذه المرأة الداهية

ثم سلَّم الرسائل المراد توزيعها الى احد مستشاريهِ وقال لهُ : —

— ابلغ كاتم اسرار نظارة الحرب اني في انتظار ناظرهِ بعد ساعةٍ

ولما خرج هذا التفت البرنس سكولوف الى كاتم اسرارهِ ديمتري ديمتريفتش كيراتيف وقال :

— احقق ان اباك ديمتري كيراتيف لم يشر الى اسم هذه البارونة التدورف او — كما يدعونها — الشيطانة الجميلة

— نعم ياصاحب السمو فانهُ لم يذكرها قط . ولكن بعد حدوث المكيدة التي نُصبت لاغتيال جلالة القيصر واصيب فيها ابي بجروحٍ المميت ذكر لي امرأة عندها مفتاح الرسائل السرية لكنهُ لم ينه قط باسمها وكنت حينئذٍ صغيرًا جدًا . فغشي محيا البرنس سكولوف ضبابة كثيفة عند سماعهِ هذا الكلام لان المكيدة التي نُصبت للقيصر ولاق فيها رئيس البوليس السابق حتفهُ كانت موضوعًا منعَ الرئيس الحالي — لاسباب سياسية — البحث فيهِ امامهُ . اما كاتم اسرارهِ فاعتبر شخصًا ممتازًا في وظيفتهِ من حيث كونهُ تحت حماية الرئيس الحالي وابن الرئيس السابق ولما اغتيل ابوهُ ديمتري كيراتيف كان هذا الفتى من موظفي دائرة البوليس وحين دُعي البرنس سكولوف الى وظيفة ابيهِ طلبهُ وعينهُ كاتم اسرارهِ . اما دورسكي رئيس عصابة النيهيلست فلم يعد يعرف عنهُ شيء وشاع انهُ قتل في اودسا بعد ذلك بوقت قصير وان جماعتهُ تفرقوا . ومن ذلك العهد منع الخوض في مسألة مؤامرتهِ وعدت من جملة المواضيع التي لا يسوغ البحث فيها في دائرة البوليس . اما الان فلم يبدِ هذا الرئيس لكاتم اسراره اشارة الصمت عن هذا البحث بل استفسر منهُ كمن تذكر شيئًا غامضًا عن حادثة منسية قائلاً

— كيف كان كلام ابيك معك بخصوص هذه المرأة ؟

— قال لي : "يا ديمتري اذا دعيت يومًا الى مقام خطير في هذه الفرقة فهنا مثال لآلة الكتابة السرية الذي تحل بهِ جميع المراسلات السرية . ومتى راسلتك امرأة على هذا النمط اطلع رئيسك على رسالتها وقل لهُ اني انا ديمتري كيراتيف خلفت لهُ وصية الاحتفاء بها والالتفات بعين الاهمية الى جميع رسائلها . وليثق بها مطمئنًا لان زمام نجاح مملكة روسيا المقدسة في قليها وقد يكون في يدها" ولذا ارى يا صاحب السمو ان "الشيطانة الجميلة" هي المرأة المعينة بوصية ابي لانهُ لم يؤتمن على آلة كتابتهِ السرية من يقلدها او يسيء استعمالها

— اظنك مصيبًا بهذا ثم تفرغ رئيس البوليس بعد هذا للاجتماع بناظري الحربية والخارجية الى الساعة الرابعة بعد الظهر . وحينئذٍ انصرف كاتم اسرارهِ وستشاراهُ وادخل اليهِ خادم مصباح المطالعة فمد يديهِ متمطيًا كمن اكمل شغلهُ او انتقل الى عمل اخف واسهل . ولم يكن يخطر ببال من ينظر اليهِ جالسًا على هذا الاسلوب من التراخي والتثاقل ان هذا الذي يستطيع بكلمة واحدة ان ينفي كثيرين الى سيبيريا او يغرق الحكومة في لجج عراقيل طامية كان قبل ان تراهُ في رئاسة البوليس بثماني سنين — الكسس دورسكي زعيم النيهيلست

نعم كان هو اياهُ ولم يعلم بهذا احدٌ سواهُ بل جميع الذين كانوا يعرفونهُ قبلاً ورأوهُ متربعًا في هذا الدست خفي عليهم ان هذا البرنس سكولوف هو الكسس دورسكي مقدام النيهيلست